

الأدب في سيرة أعلامه :

ملتن...

[الفشارة الخالدة التي غنت أروع
أنشيد الجلال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

- ٢١ -

الزواج والصداقة الأولى :

ونشر ملتن في مارس سنة ١٦٤٥ كتيباً آخر بعنوان « بتر كوردون » ، وفيه تعرض للفقرات الأربع الشهيرة المتصلة بالطلاق في الإنجيل ، وراح يفسرها أو يؤولها حسبما يذهب إليه من رأى في الطلاق ، وقد تعسف في ذلك ولقى عسراً شديداً ،

وأقوى لديها ذمماً ، وأقدم لها حجة ، وأكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب ، إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كن بتوسل إليها للغريب بالحليم ، وللجديد بالصحة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المني في نفسك غير ممثل ثم مثله كن يخبر عن شيء من وراء حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقال : ها هو ذا فأبصره تجده على ما وصفت »

وبعد فنحن لا يكفيننا من معاصرينا أن يثلبوا الأقدمين وينوهوا بقصورهم وتقصيرهم ، ولكننا نريد أن يخرجوا لنا قواعد جديدة على الوضع الذي يريدون ؛ وحينئذ نقول إنهم استدركوا على سابقهم وأفادوا علوم البلاغة ، أما أن نسمع ونقرأ أن البلاغة معقدة ، وأن النحو قاصر ، وأنه كان يجب أن يدرك الأقدمون صلة البلاغة بعلم النفس ، وصلتها بالفلسفة ثم لا نسمع ولا نقرأ غير هذا فلا . وبما أحسن قول الشاعر :

تقولون أخطأنا فيها توأموا بكم
وكونوا أبناء قبل أن تهتموا بالصرا

على العماري

لليرس بمعهد القاهرة

في نفسه من الآراء ما يخالف كثيراً مما ذهب إليه مفسرو الإنجيل الأقدمون ومن أخذ أخدم من المحدثين ، وهو في الوقت نفسه يريد أن يستند إلى الإنجيل ويتخذ منه سلاحه .

ويجمع هذا الكتيب كما يجمع سالفه « قانون الطلاق ونظامه بين المبارات المنطقية الجافة العسيرة ، وبين الفقرات العاطفية البليغة التي يصل فيها ملتن إلى ذروة الجلال الفني في النثر حتى ليجمل ناقداً فذاً مثل مكولي يقرر أنه يصل من البلاغة في كثير من نثره هذا إلى ما لا يتقاصر عن مستوى شعره في أعلى نسق له . والحق أنه ملك ناصية البيان ، إذ عاد يصور في هذا الكتيب حال الزوجين نياً بالفشل في زواجهما . نجد ذلك في مثل هذا القول :

« إنهما يعيشان كما لو كانا ميتين ، أو كما لو كان بينهما عداوة قاتل ، وهما يمد في قفص مائة » ؛ وفي مثل قوله : « إن العقل الذي لا يوافق عقولنا أبداً ، والذي هو دائماً على نقيض ما نذهب إليه ، إنما يسلمنا إلى حالة هي أسوأ من العزلة في أشد وحشتها » ؛ وفي عبارة كهذه : « هذا الحارس الخفيف القائم على الباب لا يلبث وقد جر الرجال وأعقل من في الرجال ، وانتظمهم بخداعه القاهر في سلك الزواج الفاضل ، أن يفلت أبواب الحب عليهم ، فلا رجعة منه كما لا رجعة من القبر » . وفي مثل هذه الفقرة إذ يقول :

« تعلق زوجة ، ولكن على أن تكون زوجة ، لا أن تكون عدماً أو عدواً أو هاجرة تمرتك ، أيمن أن يبلغ قانون من البعد عن العقل كأن يدعوك لتتعلق بالكارثة والسمار والقضاء ؟ »
وكما عرض ملتن طائفة من آرائه الفلسفية في كتيبه السابق، نراه يمرض هنا كثيراً من تلك الآراء ، وبعضها تكرر لما سلف والبعض جديد ، ومن أهمها رأيه في المرأة ، وفي فكرة الزواج الأولى كما أرادها الله ، وفي مبلغ قدرة القانون على منع الإثم ، وفي نصوص الكتاب المقدس كرجع يتقيد الباحث به .

أما عن المرأة ، فقد كان البيوريتانز كما كان أتباع كلفن في أوربا يرون فيها مخلوقاً دون الرجل في كل شيء ، وأن الرجل هو سبب ما خلق الله من خلق ، وما خلقت المرأة إلا معيلاً له ، فهو أنبل منها وأكرم ؛ وكانت منزلة المرأة سامية في عهد الفروسية ، إذ كان من أشهر ما يتحلى به الفارس احترام المرأة والأخذ بيدها وإفصاح مكان الصدارة لها في كل اجتماع . ومخاطبتها بألقاب

يحيط به من الناس حتى يتزوج .

ويرجع إلى آدم فيفسر وصف الله سبحانه إياه بالوحدة في الإنجيل بحاجة إلى المرأة ، أو إلى الزوجة على الأصح ، يقول في ذلك : « يراد بقول الله « وحده » هنا أنه وحده بغير امرأة ، وإلا فإن « آدم » كان يحظى بجوار الله ذاته ، وكان يحيط به من الملائكة رهط يكلمهم ويكلمونه ، والخلائق جميعاً تبهج نفسه بما تجد وما تلهو ، والله قادر على أن يخلق له مما خلقه منه ألف صاحب ، وألف آدم له إخوة بصحبونه ، ومع ذلك كله دعاه الله حتى وهبه حواء وحيداً »

وإذا كان الرجل لا يستغنى عن المرأة ، ولا المرأة تستغنى عن الرجل ، فلا رباط يربط بينهما إلا الحب ، أى لا زواج إلا على أساس المحبة والمودة : « فالحب في ناحية إن لم يجد ما يشاكه في الناحية الأخرى ، ووجد نفسه يذهب أدراج الرياح ، إذ أنه لا محالة ذاهب في مثل تلك الحالة ، قد تبقى بعده الصلة الجسدية ، واسكها لن تكون صلة مقدسة ولا طاهرة ولا مشاكلة لرباط الزواج ، إذ هي في خير حالاتها بعد ذلك لن تمدو أن تكون عملاً حيوانياً بحتاً ، بل إنها أرذل في الحق وأحط مما يرى من ترفق أخرس بين قطعان الدواب والأغنام ، ذلك أن الروح هي قوام الأعمال الأعمال الإنسانية ، وليس للجسم في ذلك أثر يذكر »

ويرى ملتن أن مرد الفسق والشهوة الحيوانية إلى فقدان الحب والتعاطف وقصر العلاقة بين الرجل والمرأة على الجسد ونزغته ، فإذا كانت العلاقة روحية قوامها الحب ، فلا تجور ولا فسوق في الحب ؛ ولذلك فالثلث الأعلى عنده لحياة الزوجين هو في تلك الأيام التي عاشها آدم وحواء قبل هبوطهما من الجنة ، فقد توشجت روحهما وجسدهما ، فلا محل لاثم ولا داعي لطلاق ، فإنه متى وجد الحب قلا مكان لشهوة ، كما أنه إذا سيطرت الحكمة ، فلا داعي لقانون ...

ويتشكك ملتن في مقدرة القانون على أن يمنع الشرمنك تماماً ، فالتم بسد العقل فلا فائدة ترجى من القانون ، وإنما يضيق القانون نطاق الشر نوعاً ما ويخفف ضراوته .

وتنظم جراءة ملتن إذ يتعرض للكتاب المقدس ، وإلى أى مدى يؤخذ بأحكامه ، فمنده أنه يجب ألا تأخذ بحرفية ما جاء

التبجيل ، وإظهار كل ما يشعرها بالحرمة ورقة الشأن ، وكانت تقاس من لباقة الفارس وفروسيته بقدر ما يتفق له من النجاح في هذا كله ؛ ولكن البيوريتانز كرهوا الفروسية ، لأنها في رأيهم من صنع البابوية ومن مخلفات الكاثوليكية ، وكرهوا كل ما كان منها بسبب ، ومن ذلك مكانة المرأة في تقاليدها ، ولم يقتصر ما كان بين أصحاب الرؤوس المستديرة وبين الفرسان من خلاف على عداوة الأولين للملك ، وولاء الآخرين له ، وتناؤد الفريقين لما يتصل بالدين من سبب ، وإنما كان الخلاف كذلك شديداً بسبب نظرة كل منهم إلى الحياة الاجتماعية ، وعلى الأخص مركز المرأة ، فقد ظل الفرسان الكاثوليك على ولائهم للمرأة والسمو بمكانتها ، بينما عمل البيوريتانز على العودة بها إلى ما قبل عهد الفروسية ، والنظر إليها كمخلوقة تخضع للرجل وليس لها إلا أن تمينه فيما يقوم عليه من شؤون الأسرة ، وأن توفر له أسباب الراحة ، وتكون له متممة ، وله دونها الرأي والقوامة ...

وحار ملتن بين المذهبين ، وتنازع عقله ووجدانه ، فلو كان بيوريتانز المذهب يكره الكاثوليكية والفساوسة كرهاً شديداً ، فهو كذلك الشاعر الحر النظرة الواسع الأفق ، الذي عشقت روحه الحياة في ربيع العصر الأليزابيثي ، أو هو آخر الأليزابيثيين كما أحب أن يسميه بعض النقاد ، وما يستطيع أن ينظر إلى المرأة تلك النظرة الجافة المعبرة عن التزمّت وضيق الأفق ! وهذه حيرته بعد طول النظر إلى أن يوفق بين منطق عقله ومنزع وجدانه ، فجعل للرجل المكان الأول في الأسرة والمجتمع ، ووضع المرأة في موضع دون موضعه ، ولكنه لم يقصر وظيفة المرأة على هونه والعمل على راحتته ، وإنما جعل العلاقة بينهما علاقة مشاركة عقلية روحية قوامها المشاكلة بين الماطفتين مما يوثق أواصر المودة ويمكن أسباب السعادة بين الزوجين ، ولقد جعل مثل هذه العلاقة كما رأينا أساس الزواج ، وإلا كان الطلاق أمراً مقضياً ...

ويرى ملتن أن الفرض الأول من الزواج حاجة الرجل إلى صلته بالمرأة صلة جسدية وعقلية وخلقية ، فلا ييلنا كمال إنسانيتها إلا بهذه الصلة ، وما يتم أحدهما إلا بالآخر ، وما يكتمل بأس الزوجين إلا متصلين ، ولن يزال الرجل في عزلة موحشة مهما

فيه ، لأنه كثيراً ما أول حسب مقتضيات الظروف والأزمان ، وتطرق إلى نصوصه الفساد ؛ وكان لا بد أن يذهب ملتن هذا المذهب ، وإلا فكيف كان يتخلص من قول كهذا ينسبه الإنجيل للمسيح : « إن من يقطع الصلة بينه وبين زوجته لسبب غير الحيانة ثم يتزوج غيرها ، فإنما يقترف خطيئة الزنا »

ونجتم ملتن كتيبه هذا خاتمة شاكية صاخبة ، فقد ساء له لقاء أهل عصره إياه ، وعلى الأخص البرستيريز ، وهم من البيوريتانز الذين طالما وصل خيالهم بحاله ، وعلق في الإصلاح عليهم كثيراً من آماله ...

ونشر ملتن في نفس الشهر الذي نشر فيه كتيبه السالف كتيباً آخر سماه « كولاستيريون » وقد جعله للهجوم ، أو على الأصح لدافعة تهجم بمثله ، واتخذ شعاره فيه قوله : « أجب الأحمق بما يشاكل حماقته ، وإلا صدق أنه حكيم فيما يتخيل من خيال »

وعاد ملتن إلى سهامه ، وإنها ليريشها الحلق واليأس من عقلية مخالفه ، فرمى أحدهم بأنه من غير التملين ، وأنه أقل من أن يعرف الإغريقية أو العبرية ، وأنه خنزير لم يقرأ شيئاً من الفلسفة ، وأنه جاء بأرائه عن الناية من الزواج من حظيرة خنازير ، وأنه أحمق ماجن يحاول أن يحملنا على الضحك بلفوه ، وأنه حمار بلغ أقصى حماقته ، فإيالي بشيء ... إلى غير ذلك مما لا يقل عنه سوءاً أو هجراً ... !

ولم يخرج ملتن من وراء صيحاته هذه بطائل ، فلا أجابه البرلمان إلى ما طلب ، ولا تركه البرستيريز يدعو دعوته دون أن يمتنوه ويخرجوه من زميرهم ، وهكذا بقى موضوع طلاقه ماري بول رغبة غلب ، لم يجد سنداً من قانون ولا عرف ؛ ولقد هدد ملتن بالخروج على القانون في كتيبه « ترا كوردون » بقوله : « إذا لم يتجلى لي القانون ما أريد ، فلي القانون — كما يقضى العقل — أن يتحمل وزر ما يترتب على رفضه من عواقب ! » وكان ملتن يتردد على سيدة تدعى « مرجريت لي » ، وكان يجد بين يديها مثل ما كان يتوق إليه من حديث عذب ومن ذكاء ولباقة لم تعرف زوجها شيئاً منها ، ولكنها كانت متزوجة ، وكان زوجها هو « كابتين هوبسون » أحد أصدقائه من أنصار

البرلمان ، فهل حاول ملتن أن ينشئ علاقة روحية قوامها المحبة والودة بينه وبين هذه المرأة ؟ ولكن ما غايته من مثل هذه العلاقة وهو لا يستطيع بالضرورة أن يتزوجها طالما أنها زوج لغيره ؟ لقد ظلت صلته بهذه السيدة مبهمة الفرض ، ولقد اختصها بمقطوعة من تلك المقطوعات الشعرية التي كان ينظمها الفينة بعد الفينة ، والتي كانت على قلبها وصفرها قصاراه يومئذ من الشعر ؛ وجعل عنوان هذه المقطوعة وهي الخامسة بين مقطوعاته والثانية منذ هجر الشعر « إلى السيدة مرجريت لي » ؛ وليس فيها ما يرم عن شيء في علاقته بهذه السيدة ، وإنما اقتصر الشاعر على امتداح أبيها والثناء على صفاتها ، ذاكرة أن ما عرف عن أبيها من الشرف والنزاهة والإباء ورثته ابنته ، فهو واضح جلي في خلقها ؛ ويتحدث ابن أخته فلبس فيما ذكر من أبناء حياته أنه تحبب إلى سيدة أخرى ، وورب في أن يتزوجها ، متحدياً بذلك القانون — كما توعد من قبل — ويقول « فيلبس » إنها كانت في أول شبابها ، فكانت رائدة الجمال ، حلوة الحديث ، على قدر من الذكاء عظيم ؛ ولكنها لم تجرؤ أن تتحدى الناس كما حاول ملتن أن يصنع ، وما كانت لتقبل أن تضع نفسها حيث لا تكون زوجة لا في عرف الناس ولا في قانون الكنيسة ، وإنما في شرع ملتن وحده ؛ ولعل هذه السيدة كما يظن المؤرخون هي موضوع مقطوعته الرابعة التي جعل عنوانها « إلى سيدة صغيرة فضلى » ، وقد أثنى فيها على طهر هذه العذراء وعفتها ونبل شاكلها ورجاحة عقلها ، وليس يعرف عن هذه العذراء ، وقد كان يطلق إذ ذاك لقب السيدة على العذاري ، إلا أنها كانت ابنة شخص يدعى الدكتور ديفز ، كما أنه لم يعلم عن علاقة ملتن بها أكثر مما ذكره ابن أخته !

على أن صلته بالسيدة مرجريت لي وصلته بهذه المجهولة الاسم قد انقطعت كليهما بإذعان ماري على غير توقع من أحد وقبولها العودة إلى زوجها !

وتمت عودة ماري على صورة أشبه بالقصة ، ولكننا قبل أن نأتي بهذه القصة على سردها نحب أن نبين سبب هودتها ، وقد فابت عن زوجها منذ هجرته نحو عامين !

وماذا عسى أن يكون ذلك السبب ؟ أهو كما يقرر ابن أخته

قلق أهلها وقلقها عما نأى إليهم من نأى اعتزامه الزواج بغيرها ؟ أم هو أقول نعيم الملك بعد هزيمة جيشه في معركة نسي سنة ١٦٤٥ على يد المستقلين من أنصار كرمول مما يهيب لرجل مثل ملتن نفوذاً وجاهاً بحيث تطلب الحماية عنده ؟ أم يرجع ذلك إلى عسر آل بول وقد أشرف على المدم مالم ؟ ذلك كله كان خليقاً أن يجنح بأهل ماري إلى طلب الصلح !

ولم يدم آل بول أصدقاء يوطئون السبيل لهذا الصلح ، ولا عدم ملتن كذلك أصحاباً أسفوا لما آل إليه حاله وأخذتهم به رافة شديدة !

وكانت ثمة قصة طريفة ، فقد أحضر بمض الصباح الجانيين ماري إلى منزل لأحدهم تعود ملتن أن ينشأ ، وخبأوها في حجرة ، حتى قدم فدخل حجرة مجاورة ، ولم يلبث إلا قليلاً حتى دخلت عليه زوجته فألقت نفسها على قدميه باكية تسأله الصفع والغفرة ، وهو لا يكاد يصدق عينيه من الدهشة ولا يدري من فرط حيرته ما ذا يقول ... !

وتولست إليه ماري متهمه أمها بما حدث ، ملقية كل تبعة عليها ، وكانت تنكلم كما لو تكلمت طفلة تبرى نفسها عما نسب إليها ، واللبوع تتسائل من عينيها على خديها قد ألهمتاه حمرة الخجل ، وفي جسدها كله رجفة شديدة وق لها قلب الشاعر ؛ ولبت برهة ينظر إلى زوجته تستغفره وتوب إليه في ضراعة ومسكنة ، كما لو كانت تكفر عن خطيئة ، وفي وجهها سذاجة لا أثر للتكلف فيها ، فهي لم تزل من عمرها يمد في التاسعة عشرة ...

وأبت عليه أرحمته إلا أن يصفح عنها وعن أهلها ، فأميل نفس كنفه إلى التشنق من قوم حطهم الدهر من عل ، وأذلهم الأيام بعد عزة كما تأبى على الفارس فروسيته أن يضرب خصماً له هوى أو كبا به فرسه ؛ ولم يقتصر على الصفع كرمه وتبل ماطفته ، بل لقد آوى آل بول في بيته جميعاً ومن بينهم أم زوجته التي ألقت بنتها على كاهلها كل تبعة ؛ وأسدى إليهم بذلك صنيعاً لا ينسى ، فقد سقطت فورست هلى في يد أنصار البرلمان ، وطورد أنصار الملك ومنهم آل بول فضلاً عما حاق بهؤلاء من قافة شديدة ... !

ولم يكن صفحه دليلاً على نبهه غضب ، بل إن فيه شاهداً

كذلك على شجاعته الأدبية ، فقد كان خليقاً أن يسخر منه الناس بمد أن أذاع فيهم من آرائه ما أذاع ، وبعد أن ادعى إنقاذ البشر جميعاً بما كتب ، وبعد أن اتبعه فريق من المعجبين به المتحمسين له ، ولكنه وقد تعود الأيالي بشيء في سبيل ما يؤمن أنه الحق صفح عن زوجته غير عابى بما عسى أن يقول الناس !

ولقد ترك لقاء زوجته إياه على هذه الصورة أثراً عميقاً في نفسه ، فلا تكاد تقع عين القارىء على المنظر الآتى من مناظر « الفردوس المفقود » ، وقد كتبه ملتن بعد ذلك بمشرين عاماً ، حتى يمسى قوة الشبه بين الصورتين . قال ملتن يصف لقاء بين آدم وحواء : « وجاءت حواء ودموعها لا تنى تتساقط ، وشعرها تشعث كله ، فألقت نفسها متضرعة على قدميه واحتضنتها سائلة إياه الصلح ؛ وظل هيكلها الساجى لا حراك به ، حتى أحدث أثره في نفس آدم ذلك الصلح ولده الاعتراف والندم ؛ وسرعان ما رق قلبه لها ، إذ ألنى بهجة حياته التي لا بهجة له بعد طول الوحدة غيرها عند قدميه في حزنها مذعنة خاضعة » !

واستأجر ملتن منزلاً كبيراً غير الذى كان يعيش فيه ، يتسع لمن لا يزال يعلم من تلاميذه وزوجته وأسرته ؛ وقنع الشاعر بحظله ، وماشر زوجته ، لا كما طالما تأقت نفسه إليه من مثل ، ولكن كما شاء له القدر ؛ وفي يوليو سنة ١٦٤٦ صارت ماري أمًا وصار ملتن أباً .. ١

(يفتح)

المختص

الأستاذ أبرهملدود - طاع الحصري بدم

إلى المطبين والمربين والوالدين والمفكرين

١ - آراء وأحاديث في الوطنية والقومية

٢ - آراء وأحاديث في التربية والتعليم

وهما خلاصة مطالعات ، وزبدة تجارب ، في ترتيب

منطقى ، وأسلوب سهل ، وصورة مشوقة . يطلبان من

إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة ٢٠ قرشاً للأول ،

٣٠ قرشاً للثاني عدا أجرة البريد